تأملات حول سياسة الابادة التي اتبعها ملوك الأسبان ضد المورسكيين "Los Moriscos"

■ د.جمال الجازوي
كلية الآداب – جامعة الفاتح

حقائق تاريخية :

خلال حكم ملوك الأسرة النمساوية بلغت سياسة الإبادة والملاحقة ومحاكم التفتيش ذروتها ضد المورسكيين ، هذه السياسة وذلك الزمن يستحضران لذاكرتنا العديد من الصور والأحداث المأساوية التي ظهرت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر 1517 –1700.

تلك الأحداث التاريخية الغير مقبولة على كافة الأصعدة تنقلنا إلى الواقع المأساوي التاريخي الذي نلمسه اليوم ، ولعلها نفس الظروف التي تعيشها الآن شعوب كل من فلسطين ، العراق ، الشيشان وأماكن أخرى كثيرة في العالم.

كي نتعرف على المشاكل التي صاحبت وجود تلك الأسرة ، لجأت إلى العديد من المصادر والوثائق التاريخية سواءًا داخل أسبانيا أم خارجها حيث وجدنا الكثير من الروايات والحقائق والمعلومات المغلوطة أحياناً والمتناقضة أحياناً أخرى ، الموضوعية أحياناً والمنحازة أحايين هذا على الرغم من الروايات التي قيلت حول مواقفهم ومآثرهم ، إنجازاتهم ، مسؤولياتهم ، مصالحهم والتزاماتهم ولما لا...وقد رأينا مدى إنكبابهم وانشغالهم بمصالحهم الخاصة وأمور دينهم كما يروي لنا التاريخ والمؤرخين .

و بالمناسبة لاننفي أيضاً أنهم قد ارتكبوا أيضاً بعض الأخطاء والحماقات التي لا يمكن القبول بها فهي مثيرة للدهشة وغير مستساغة منذ الوهلة الأولى (1).

من الصعب الولوج إلى عقلية هؤلاء الملوك وعصرهم على السواء لأن أفراد هذه الأسرة وخلفاءهم ، البعض منهم أصاب والبعض الأخر أخطأ كما شهد لنا التاريخ بهذا لكن جلهم دافع عن الديانة النصرانية الكاثوليكية و شن حرب الإبادة ومحاكم التفتيش التي إعتبروها ضرورية (2).

على أية حال فإن هذه الأفعال كانوا يرونها تبريراً لموقفهم المتطرف والمتعنصر على الرغم من تذرعهم بتنفيذها إضافةً إلى الأعمال المشينة الأخرى باسم الدين وشرف الوطن والإثنين منهما براء مما يجعلنا نقدمهم في شكلهم الحقيقي لمحكمة التاريخ للقصاص منهم عما ارتكبوه.

كانوا منغلقين على أنفسهم ، مرضى ، من الصعب أن يفهموا أو وينفتحوا على من حولهم وكانوا محاطين بثلة من أتباع وحاشية فاسدة دون وفاء أو ولاء ، لكن السؤال هو ....من أين أتى أولئك الملوك الذين كثيراً ماإمتدحهم التاريخ خلال مختلف حقبه المتتالية ؟!

كلنا نعلم أنهم كانوا ملوك مختلطي الأنساب ، متعددي الإثنيات ، عديمي الهوية ، متقلبي الأمزجة ذوو طبيعة انطوائية ، كثيري الخوف ، دائمو التوجّس غير أوفياء، يفتقرون إلى الثقة لكنهم متعطشين إلى السلطة والعظمة والكبرياء (3).

هذه هي الحقيقة التاريخية المحزنة لهؤلاء الملوك ولو أن بعض المؤرخين يؤكدون العكس لأنهم يفضلون عدم الخوض في تحليل الأحداث وبذا تجاهل الحقيقة.

هل يمكن فهم ذلك الحماس والشعور الديني وحقيقة الملوك الذين لم يكونوا يعترفون بأي عقائد دينية أخرى غير الكاثوليكية ..! ولو أنهم كان لديهم نفس المعتقد وسلكوا طريق الألوهية الواحد ، أي آمنوا بالوحدانية..؟

يمكن أن نقـول بصراحـة أن الإخلاص الديني لهؤلاء الملوك يمكن مناقشـته والوقوف عليه وتفنيده حـتى وإن لم يكن غير مبـرر لأننا علي يقـين من أن كل الحروب التي خاضوها خارج حدودهم كانت بهدف الرغبـة في التوسـع وكذلك الصراعات التي خاضوها في الداخل كانت لأسبـاب سياسـة خالصة ولو أنها ظاهريًا لاتبدو كذلك فدائماً ألبسوها رداء الدين(4) .

هذا تماماً ما حدث مع كل ملوك هذه الأسرة دون إستثناء بـداية من عهد فيليب الثاني حيث بدا جلياً أنهم جميعاً تعاطوا سياسة تتماهى مع السلطات المطلقـة ، إن ذلك هو الهدف الوحيد الذي سخروا له حياتهم بالكامل والذي بسببـه دفع الشـعب الأسباني ثمناً باهظاً من حياته ودمه.

فيليب الثاني والمشكلة الموريسكية:

كانت سياسة فيليب الثاني مع المورسكيين واحدة من أكبر المشاكل التي أرقـت مملكته, سياسة إستنها وسلكها ذلك التاج منذ القرن الثالث عشر وتم تكريسـها في عهد خليفته فيليب الثالث في بدايات القرن التاسع عشـر وكانت وبـالاً من خلال تبعاتها الكبيرة على الإقتصاد والسكان (5).

إن الحرب التي شنها فيليب الثاني ضد المورسكيين كانت قاسية ورهيبـة وكان الهدف من ورائها إبعاد المورسكيين وإجبـارهم على ترك أراضيهم في غرناطة التي وزعت فوراً على النصارى وبـهذا كان فيليب الثاني يواصل سياسـة والده كارلوس الخامس بدعم حرب الإبادة والعنصرية دون هوادة .

السياسة الدولية لفيليب الثاني :

كان الأداء الدولي لفيليب الثاني واسع الأفق ، بـعيد النظر تماماً كسـلفه والده كارلوس الخامس ، هذا المنظور السياسي من جانبه كان أكثر فاعلية وحسـماً في

الحروب التي خاضتها تلك الأسـرة المالكة خصوصاً فيليب الثاني وذلك بـدافع الرغبة في بناء إمبراطورية تصل إلى كل أنحاء أوروبا وشمال أفريقـيا وأمريكا وآسيا.

كما كان فيليب الثاني على المستوى الشخصي مهتماً بكل أمور الدولة وبشـكل خاص شؤون أوربا وبالسياسة الدولية عامة ، وانطلاقًا من قـناعته التامة بـدوره كحامي حـمى الكاثوليكية عمل على تعزيز شـعوره الديني عالمياً نظراً لالتزامه ظاهرياً "كما يحلوا لأغلب الحكام أن يكونوا"! بأنه عميق الأيمان دينياً, ولو أنه قبل موته كان يخلط بين ماهو بشري وماهو روحي وماهو الهي لدرجة المغالطة على الرغم أنه في ذلك العهد كان من الصعب ملاحـظة الخلط بـين العوامل الدينية والعوامل السياسية على حد سواء.

أصـل محاكم التفتيش:

كانت سياسة الأسرة الملكية المذكورة ، وهي بطبيعة الحـال تواصُل لما كانت عليه سياسة الملوك الكاثوليك في السابق وكذلك سياسـة البابـوات ورجال الدين تهدف أساساً إلى إبادة المورسكيين بواسـطة محـاكم التفتيش ومصادرة أملاكهم وأرزاقهم بإتباع أقسى الوسائل وأشدها صرامة.

في العام 1605 قام مجلس الدولة بإصدار قرار الطرد الذي كان قد أمر به الملوك الكاثوليك فرناندو وايزابيل إبّان عهدهم, حيث قـام بـمواصلته فيما بـعد خلفهم كارلوس الخامس ثم ابنه وخليفته فيليب الثاني.

هذا القرار جاء ليقول أن المورسكيين الذين سيبقوا أو يستمروا في ديارهم ليس أمامهم أي خيار إلا التحول إجباراً إلى الديانة النصرانية...!

كانت مسألة في منتهى الخطورة مادام المورسـكيين الذين أُجبـروا على ترك

دينهم لم يكونوا أبـــداً نصارى بالإقـــتناع ، على الرغم من انخراطهم في المجتمع الكاثوليكي وعيشهم بين ظهرانيه.

أما عن وجود المورسكيين في الأراضي الأسبانية فقد بدا الشغل الشاغل طوال فترة ولاية فيليب الثاني.

ويحكي لنا التاريخ أن فيليب الثاني وعندما إعتزم إجبار المسلمين على التخلي عن عقيدتهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ولغتهم ، ربما كان العام 1566 هو الأشـــد ضراوة في تنفيذ تلك المخططات والشاهد على تلك الأعمال الوحشـــية وتبـــعاتها المشينة على الساحة الدولية آنذاك.

إن شن الحرب على بقايا العرب في الأندلس "المورســـكيين" وهو ماسُمي زوراً بحرب التحرير من قبل ملوك النصارى هو حـــرب الإبـــادة بـــعينها ضد هؤلاء المورسكيين المستضعفين والذين كانوا يمثلون الإسلام , لذا من الصواب تسميتها بالحرب الحقيقية بين النصرانية والإسلام كما كان يريدها فيليب الثاني وقتذاك.

نعم هي كذلك وهي الحرب التي أعلنها فيليب الثاني وورثها عن أبيه كارلوس الخامس باعتبارها "واجب وطني" دون التعمق في جذور المشكلة أو البحـــث عن حلول للمشكلة المورسكية الأسبانية.

معروف ايضاً أنه في زمن فيليب الثاني ازداد وضع المورســـــكيين تأزماً لأنه أراد تطبيق سياسة أسلافه فرناندو وإيزابيل الذين كانوا يريدون توحيد نمط وشكل الحياة الإجتماعية الأسبانية والحفاظ على خصوصياتها و"نقاء الدم" وذلك بتخيير المدّجنين إما بـــــتعميدهم نصارى أو إخراجهم إلى "بـــــلاد البربـــــر" موطنهم الأصلي.!(6)

وبهذا كانت سياسة أولئك الملوك بمثابة أزمة مستمرة سواءًا على الجانب السياسي أو الديني.

فيليب الثالث والمورسكيين:

و اصل وضع المورسكيين تأزمه خلال فترة حكم فيليب الثالث الذي عُرف بضعفه وعجزه السياسي أمام الأحداث وكان ينادي بالطرد الكامل للعرب متذرعاً بضرورة الحفاظ على "تنقية دينه" وهدوء مملكته (7).

أما النتيجة المباشرة لهذا فكانت فقدان جزء كبير جداً من السكان ممن كانوا يعتبرون من أفضل المهنيين والمهرة المؤهلين للإدارة وكذلك الخبراء الزراعيين وكفاءات أخرى كانت ضرورية لتطوير كافة سبل الحياة الإجتماعية والإقتصادية للبلاد ، وإذا كان ذلك الطرد بمثابة مأساة وعار تاريخي فإن النتائج كانت أشد قسوة وحزن لكلا الطرفين.

المؤكد أنه في ذلك الوقت عانت أسبانيا من الكثير من مظاهر الإنهيار والإفلاس على كافة المستويات نتيجة لذلك الحكم الفاسد للملك فيليب الثاني بسبب الضغوطات والسياسات الإقتصادية والعسكرية الخاطئة التي انتهجها ، أضف إلى ذلك أسباب الإسراف السياسي عن جهالة مما أدى إلى إنهيار مملكة قشتالة وأدى بالبلاد إلى فوضى عارمة, هذا إلى جانب التسيّب الإداري والإنحلال الإجتماعي والسمعة السيئة والشبهات داخل دوائر حكومته التي كانت تدير شؤون تلك الإمبراطورية الواسعة نظراً لعبء المسؤوليات التي ورثها عن أبية فيليب الثاني والتي لم يعد يتحملها كتفه الهزيل.

كان هذا الملك مُحباً للفنون والآداب واللهو وهو الذي قال عنه أبوه يوماً "لقد

وهبـــني الله الأملاك الشاســـعة لكنه لم يهبـــني الابـــــن القـــــادر على ولايتها وحمايتها" (8).

لكن التاريخ سجل بالتأكيد لهذه الأسرة فترة صدامات وصراعات مستمرة تبلوّر من خلالها مفهومان اثنان هما:

– هوية تلك الأسرة وتكوينها الثقـافي من خلال أعرافها المرتبـطة بالتقـاليد النصرانية أو مايمكن أن نسميه بـــ"ثنائية الإمبراطورية البابوية"!.

– إلغاء النظام القديم للدولة واستبداله بسياسة دينية جديدة ليتمشى مع سياســات العصر السائدة آنذاك .

على الرغم من قصر فترة حكمه نسبياً كان فيليب الثالث أول من تم الإعتراف به من الأسرة الملكية كوريث لكل الممالك في جزيرة أيبيريا , وهي ذات الممالك التي ورثها خليفته فيليب الرابع بكل تبعاتها ومانجم عنها من إغراق البـــلاد في تدهور وإنهيار تام.

كانت فترة حكم أولئك مليئة بالإســـتفزازات والإنتقـــادات وتقـــلب التحـــالفات والولاءات والصراعات والتعنصر وتزايد الشبـــهات والمؤامرات وكل أشـــكال التمرد والخيانة...الخ.

تقلبات وأحداث كانت في مجملها خطيرة جداً في صياغة التاريخ الأسباني والتي مازلنا نلمس تبعاتها وتعقيداتها حتى وقتنا هذا.

كيف يمكن أن نعلم أو نتخيل أن بضعة ملوك أمثال هؤلاء حـــتى لو افترضنا أنهم أذكياء ومثقفون وأقوياء ومتدينون كما يبدو وكذلك استطاعتهم التعايش والتســـامح مع كل الإثنيات...

كيف يمكن تصوّر هذا بينما أنفضحت عقـــليتهم الشـــريرة المتغطرســـة الغير

متسامحة من خلال ازدواجية تطبيق النظام والقوانين..؟!

على أية حال لايمكن أن ننسى حجم الهزائم العسكرية التي توالت على مختلف الجبهات خصوصاً عام 1629 والتي أدت إلى التفكك الداخلي في الممالك النصرانية الأسبانية, ربما كانت قشتالة هي المملكة الوحيدة التي سلمت من ذلك التفكك وتحولت بذلك إلى رمز للأمة الأسبانية مما جعلها تبسط نفوذها على بقية الأقاليم في البلاد وبهذا كانت بمثابة المخرج الوحيد لأسبانيا المعاصرة.

إن السياسة العمياء التي اتبعوها في الإبادة تجاه المورسكيين كانت المبرر الأقبح من الذنب إن كان هناك ذنب أصلاً..؟! أما التطهير العرقي الذي مارسوه ضد العرب أو بقاياهم المورسكيين كما أطلقوا عليهم فلم يشهد التاريخ جريمة أبشع منه حتى وقتنا هذا.

وفي سبيل تنفيذ هذا المخطط إتُبعت أبشع الأساليب الوحشية من تعذيب وتنكيل وتشريد وانتهاك لكافة الحقوق والأعراف لالسبب إلاّ لكون المستهدف هو مورسكي أو كما أسموه"المسلم الحقير"والذي هو في الأصل عربياً..! غير أن التاريخ والجغرافيا يقران بانتمائه إلى الأرض التي ولد وترعرع فيها وهي جزيرة ايبيريا مع احتفاظه بدينه الإسلامي .

هؤلاء صودرت أراضيهم وأملاكهم ولم يعد أمامهم إلا الموت أو التحول إلى الديانة النصرانية لينعموا"بحياة هادئة" !

من خلال الإطلاع على تاريخهم الخاص يتضح لنا أن الأسرة النمساوية الحاكمة قد إنتهجت سياسة عنصرية قسرية متغطرسة في سبيل ممارساتها دون أي تحفظ إنطلاقاً من المؤسسات الملكية التي يشرفون عليها ، وكان الظلم والملاحقة هي السمة الغالبة ضد رعاياهم الذين كانوا يشكلون شريحة هامة من السكان.

كانت سياسة الإبادة هنا ترتكز أولاً وأخيراً على نظرية عنصرية تستقي أفكارها من نصوص محددة ومحرفة من الكتاب المقدس وهي على أية حال نصوص ومفاهيم دينية خاطئة تجافي العقل والواقع (9).

مما يرثى له أن الكثير من الوثائق والشواهد تكشف الكثير من البيانات والتصريحات والإجراءات التي اتخذها أولئك الملوك بالخصوص مذيلة بتوقيعاتهم وأختامهم طوال فترات مُلكهم المتعاقبة ، معظم تلك الوثائق تثبت بما لايدع مجالاً للشك مدى اهتمامهم بالصراع الفكري بمختلف إتجاهاته المغلوطة.

كل تلك الشواهد تفضح ممارساتهم المشينة باستخدام السلطة المفرطة ، فكل السلطات والأوامر الملكية والدينية تصب في إذكاء كل صنوف الإبادة والتطهير العرقي والتي بلغت ذروتها في الفترة من القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر.

تقييم ونقد:

إن كل المصادر والمعلومات والوثائق التي تتحدث عن موضوع الإبادة ومحاكم التفتيش ضد العرب في الأندلس إبّان فترة ملوك الأسرة النمساوية تؤكد مجدداً أن ملوك هذه الأسرة كانوا جميعاً تحت تأثير معاونيهم من رجال دين بالدرجة الأولى ومستشارين ومقربين ، وهذا بدوره يسهل علينا فهم مدى التعقيدات والمشاكل الدينية والسياسية والعرقية التي تورطوا فيها خلال فترة حكمهم المتعاقبة وماصاحبها من سلسلة حروب طويلة واتفاقيات وأحلاف وزيجات تحالفية ..الخ.

أما الدين فكان تقريباً السبب الرئيسي في حروبهم وصراعاتهم ، أما بالنسبة لعلاقات القرابة فكانت هناك وشائج أسرية من خلال المصاهرة بينهما وذلك حينما تزوج الكثير من أبناء التاج الأسباني بأبناء عمومتهم في فيينا بالنمسا.

أما تعزيز هذه العلاقة فهو لا يستجيب لعلاقات القربى فحسب وإنما

لإستراتيجيات تخدم مصالح أسبانيا دون غيرها (10).

لكن على أية حال كانت البواعث السياسية في تقديري أكثر حسباناً من الدينية ولو أننا قد لاحظنا أن كلاهما مرتبط بالآخر مادام الحاكم يعتقد أن حروبه وصراعاته ما كانت إلا لأسباب دينية وعقائدية الأمر الذي اكتنفته الكثير من المغالطات والتحريفات بفعل مستشاريهم المقربين منهم .

بدخول القرن الثامن عشر بدأت الإمبراطورية الأسبانية تفقد سيطرتها وأملاكها وبها رجها بسبب حكامها الذين لم يعرفوا كيف يسلكون الطريق الصحيح ولا السلوك القويم في مسلكهم بل أغرقوا في مشاكل ومتاهات لاحصر لها .

الهوامش :

(1)- Cardillac,Louis, El enfrentamiento entre moriscos y cristianos,Granada, 1992

(2)- Véase el mismo citado Pag 92

(3)- Llorente, Juan Antonio ,Historia de La Inquisición en España,1tomos,ed Hiperión, Madrid 1981Pag32

(4)- Espalza, M, Problemas teológicas musulmanes y cristianos, Revista Sharq al andalus, Alicante 1991, Pag 17

(5)- Gómez Zarraquino, Jose Ignacio, La inquisición y los moriscos de Aragón en la segunda mitad del sigloXVI, Aragón, 1980 Pag 124,162

(6)- García Arenal, Mercedes, Inquisición y Moriscos, Madrid 1987,1Edi Pag 101

(7)-Los moriscos en el pensamiento de Caro Paroja, Revista cuadernos hispanoamericanos, Granada 1994. –Los moriscos en el pensamiento de Caro Paroja, Revista cuadernos hispanoamericanos, Granada 1994.Pag 58

(8)- Menéndez Pidal, Ramón, Idea imperial de CarlosV, Madrid, Espasa Calpe ,1941.Pag 223

(9)- Marañon, Gregorio, Expulsión y Diáspora de los moriscos españoles, Revista de Occidente, Madrid 1980.Pag34

(10)- Carrasco Urgoiti, Mª Soledad, El prooblema morisco en Aragón al comienzo del reinado de Felipe II, Valencia 1969.Pag88

المراجـــــع :

كما أشرت في بداية الموضوع, فما كتب عن المورسكيين لاحصر له في المكتبـــة الأسبـــانية و العربية على حد سواء نظراً لأن العرب المسلمين أو المورسكيين كما أطلقوا عليهم أو "المورو- Moro " في أيامنا هذه ستكون جزءاً أساسيًا من التاريخ أسبانيا الوسيط والمعاصر .

وأثناء كتابة هذه الورقة استعنت بما كتبه الأسبان أنفســـهم لكشـــف مدى التحـــريف والتزييف والتعنصر عند البعض, وكذلك الموضوعية و صدقية البحث التاريخي والتوثيقي عند البـــعض الآخر وسأذكر من هذه المراجع ما يلي :

(1)- Boronat, P *Los moriscos españoles y su expulsión*,Valencia 1901.2 vols

(2)- Cardillac,Louis, *El enfrentamiento entre moriscos y cristianos*,Granada, 1992

(3)- Caro Baroja, Julio, *Los moriscos del reino de Granada*, Inst de Estudios Políticos, Madrid 1957.

(4)- Carrasco Urgoiti, M° Soledad, *El prooblema morisco en Aragón al comienzo del reinado de Felipe II*, Valencia 1969.

(5)-*Los moriscos en el pensamiento de Caro Paroja*, Revista cuadernos hispanoamericanos, Granada 1994.

(6)- Domínguez Ortiz,Antonio, *Los Moriscos granadinos antes de su definitiva expulsión*, Miscelánea de estudios árabes y hebraicos XII y XIII, 1963.

(7)- Espalza, M, *Problemas teológicas musulmanes y cristianos*, Revista Sharq al andalus, Alicante 1991.

(8)- García Arenal, Mercedes, *Los moriscos*, Ed Nacional, Madrid, 1975.

(9)- García Arenal, Mercedes, *Inquisición y Moriscos*, Madrid 1987.

(10)- Gómez Zarraquino, Jose Ignacio, *La inquisición y los moriscos de Aragón en la segunda mitad del sigloXVI*, Aragón, 1980.

(11)- Llorente, Juan Antonio ,*Historia de La Inquisición en España*,4tomos,ed Hiperión, Madrid 1981(11)

(12)- Marañon, Gregorio, *Expulsión y Diáspora de los moriscos españoles*, Revista de Occidente, Madrid 1980.

(13)- Menéndez Pidal, Ramón, *Idea imperial de CarlosV*, Madrid, Espasa Calpe ,1941.